العجائبيّة والحلم في الرحلة الحجازيّة المغربيّة
دراسة لبعض الظواهر الاجتماعيّة (تنجيم، تصوف، كدية)

The miracle and the dream in the Moroccan Hijaz trip
kadia، mysticism،A study of some social phenomena astrology

أ. رابح بودية‡

تاريخ الاستلام:27-07-2020 تاريخ القبـول:15-10-2020

ملخّـــص: ينطلق أدب الرحلة باعتباره من الأجناس الأدبية الجديدة في ميدان التأليف. إلى الكشف عن بعض خصائص المنطقة الجغرافية وما يعتريها من تقلبات غير أن هذا المؤرخ الأديب عندما يرفع قلمه في وصف هذه المناطق، فإنّه لا يكتف بوصفها وصفًا حسيًّا كليًّا، بل يضيف إلى هذا الوصف بعض الآليات السردية التي تجعل رحلته أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع، ومن بين هذه الآليات السردية التي تحقق التشويق والمغامرة للقارئ عند قراءته لهذه الرحلة هو عجائبية بعض المشاهد والصور التي ينقلها الرحالة والأديب من أجل إعطاء هذه الرحلة صبغة الشهرة، وجعلها أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع، وعليه جاء هذا المقال ليعالج بعض الجوانب العجائبية في الرحلة الحجازية في بلاد المغرب.

كلمات مفتاحيّة: عجائبية؛ رحلة؛ حلم؛ مغرب عربي؛ ظاهرة؛ نثر

Abstract :the journey begins as one of the new literary genres in the author's field. To reveal certain characteristics of the geographic region and the vicissitudes of the present، when this historian writer has the pen to describe these regions، it is not only a complete sensory description، he adds narrative mechanisms which make his journey closer to the imaginary of reality and Among these narrative mechanisms that bring suspense and adventure to the reader when reading this trip، let us cite the random nature of certain scenes and images conveyed by travelers and writers in order to give this trip a scent of glory and bring it closer to the imagination of reality. Ed Morco.

‡جامعة أبو القاسم سعد الله، الجزائر، البريد الإلكتروني: rabahboudia80@gmail.com
(المؤلّف المرسل)

Keywords :Miracle؛Journey ؛Dream Arab Maghreb؛phenomenon ؛ prose

1-الرحلة الحجازية:

هي الرحلة المكتوبة التي استهدفت تسجيل مراحل السفر إلى الحجاز، والحديث عن معالم الحج وتأدية مناسكه، وقد عرف التراث المغربي كتابة الرحلة الحجازية مع العصر المريني.

والرحلة الحجازية وإن تباعدت أشكالها، وتنوعت أحجامها ونصوصها، تبقى رهينة مجموعة من الثوابت، لتعطيها صفة الانتماء إلى صنف الرحلة الحجازية، بمميزاته وخصوصيته، ولتتمثل بها تلك القواسم المشتركة التي تلتقي بها هذه الرحلة مع مثيلتها في الصنف، رغم تباعد زمنها وتباين اهتمامات الكتاب لها، وتفاوت طريقة الكتابة والقدرة على الصياغة الأدبية فيها.

وهكذا كانت كل رحلة حجازية مكتوبة عند المغاربة – على اختلاف أزمنتها – تقوم ضرورة على تمثل هذه الثوابت، ولو في أدنى مستوياتها، وهي:[1]

1. أنها تقوم على هدف أساسي، هو الذهاب إلى الحجاز، والرحلة إليه، بقصد تأدية مناسك الحج، والقيام بزيارة قر الرسول "ص"، وبذلك أخذت تسميتها بالرحلة الحجازية أو الحجية وتعيين صنفها المميز لها.
2. أنّها تحمل أوصاف الرحلة يمثلها الحديث على مجموعة من المراحل، يحدث بينها التنقل والسفر، وتتولد فيها ومعها، مختلف المصاعب والمشاكل الراحلين عادة، في البر أو في البحر، وتنطلق من المغرب إلى الحجاز ذهابا، ومن الحجاز إلى المغرب إيابا، مهما اختلفت الطريق، وتنوعت وسائل السفر، ومهما تباينت المراحل التي تتمثل فيها مسالك هذه الرحلة ووحداتها.

3. أن الحديث عن المناسك وطريقة تأديتها، يكاد يكون متشابها بين مختلف نصوص الرحلات الحجازية، لأنّ الإحرام والوقوف بعرفات والطواف والسعي بين الصفا والمروة هي الأركان التي قام عليها الحج منذ شرعه الله للنّاس.

وزيادة على هذا، فإنّ فترة الحديث عن المناسك، وكيفية تأديتها، تصبح من الضروريات الجارية في كل الرحلات الحجازية، مما يجعلها عملا ثابتا تشترك فيه أعمال هذه الرحلات بما فيها الرحلات المختصرة أيضا، ومميزا به، وبخصوصيته.

ويصاحب في الغالب هذا الوصف لممارسة المناسك في وجهها التطبيقي، حيث قد يطول أو يقصر، ويأخذ بالوجه النظري لمناسك الحج، ويستعرض التصوّر الفقهي حوله، وما تضمنته مواقف بعض المصنفات الفقهية تجاهه، وكيفية الحسم في تقرير بعض الاجتهادات في الموضوع، إمّا باستحضار نصّ الحديث قولاً أو فعلاً، وإمّا بالاعتماد على ما سبق من أقوال الأئمة واجتهادات الشيوخ.

ورغم ما يبدو من تفاوت في العرض الحديثي والفقهي بين هذه الرحلة أو تلك، مما يكون الأمر فيه مرتبطا بخصوصية الكاتب العلمية، ومدى تحصيله الفقهي والحديثي.

4. إنها تحاول أن تسجل ما ينتاب الحاج من شوق وحنين إلى الحج، وزيارة قبر الرسول "ص" وما يحمله من تسرع في تحقيق رغبة الوصول، وتطلع إلى مواجهة معالم الحج، والزيارة المقدسة.[2]

وتحتفظ في الأغلب – رغم تفاوت قدرات كتابتها – برصد آثار المواجهة الأولى لهذه المعالم عند الحاج، وما تحدثه من انفعال في نفسه، وهو يشاهد المعالم أول مرة في واقعيتها، بعد أن ظلّ وجودها لديه ذهنيا، تحمل صورته أحداث السيرة النبوية، وتنقله نصوص الأحاديث النبوية وتعرف به مقروءاته في الفقه، ومطالعاته في المناسك فيحدث لديه من الأثر في صدمته الأولى أمامها، ما يحوّل الموقف إلى موقف خشوع وتبتل وعبادة، وهبة وسكينة، ويفجّر لديه

من الأحاسيس والانفعال، ما تعكسه تلك الآداب والأعمال الشعرية التي ينشدها قصائد من إنتاجه، أو من مقطعات غيره، تعبيرا عن هول هذه الصدمة في المواجهة، وكشفا عن مخلفاتها في نفسه، وإثارة لما يحمله، من وقع هذه المعالم، وقدسيتها في وجدانه ووعيه.

والتعبير عن هذه المواقف، هو أمر، لا تكاد تخلو منه مواد رحلة من الرحلات الحجازية مما يجعله من الثوابت المشتركة في عمل الرحلة الحجازية التي أنتجها المغاربة غير أن نسبته تبقى قائمة، لتفاوت القدرات الأدبية عند أصحاب هذه الرحلات، وطواعية العمل الشعري عند هذا دون ذاك، مما يجعل أمر التعبير عن هذه الآثار والمواقف يتباين بين إيجازها وتوسعتها.

ويصادف في الأغلب، التعبير الأدبي عن هذه المعالم والآثار، حديث يستحضر به المشاهد الصورة التاريخية لهذه المعالم، إمّا في مكة وبين ربوعها ومعالمها، وبخاصة البيت العتيق، ومقام إبراهيم، وأبواب الحرام، ومنزل الرسول "ص" والصحابة، وإمّا في المدينة المنورة حيث المسجد النبوي وروضة قبر الرسول، ومدافن الصحابة، وغير ذلك من المعالم.

فيتذكر ما تنقله أحداث السيرة النبوية ومغازيها، ويورد ما تحتفظ به كتب التاريخ بمكة والمدينة.

والحديث عن المعالم التاريخية في الحجاز، وبخاصة المقدسة منها، يكاد يكون قاسما مشتركا بين مختلف الرحلات الحجازية، رغم تفاوت القدرة على الوصف أولا، واستحضار التواريخ المرتبطة بها في السيرة والمغازي بين كتاب هذه الرحلات، إلاّ أنّها في عمومها، تحتفظ بحظها من الوصف العمراني والتاريخي لهذه المقدسات: البيت العتيق، والحرم، ومسجد الرسول "ص"، وبعض معالم مكة والمدينة، والبقيع وأُحد، وبدر، وغار حراء، وبعض المساجد قباء ومنى، وعرفات، وغيرها.

وتتخذ هذه المعالم واقعا تأتلف به مع هؤلاء الرحالة، فيتمثل حضورها من خلال الثقافة والسيرة عندهم.

5. أنها تقوم على الوصف وتسجيل ما يجري من أحداث الرحلة، وإن تفاوتت قدرات الوصف بين أصحابها، وتباعدت قوة الملاحظة، والتسجيل بين كتابها، وغالبا ما ينصرف هذا الوصف إلى إبراز بعض الأحداث الأساسية التي يقوم عمل الرحلة بها، ويتركز عليها باعتبارها تشكّل مجموعة من الثوابت تتركب منها هذه الأحداث، وتعطيها صفة التميز على أنّها أحداث رحلة ووقائعها، وتبدأ عملية الوصف بأخذ هذه الأحداث في أشكالها التالية: (3)

- وصف الاستعداد للرحيل، بما فيه وصف حالة الشوق للذهاب إلى الحج، بما فيه وصفُ حالة الشوق للذهاب إلى الحج، وخطوره على النفس، وإلحاحه في قرار الرحيل، والحسم فيه، فتبدأ عملية تيسير الأسباب بتهييء الأزواد، والبحث عن الرفقة، وإعداد العدة للسفر بما تلزمه الطريق، من ركوب، وأموال، وحماية، واستعداد نفسي وبدني، ثمّ يعقب بعد كل هذا لحظة السفر، وبداية الرحلة، وتوديع الأهل والأصحاب.

- وصف مراحل الرحلة وذكر مميزاتها ويقوم فيها الحديث، إن كان السفر في البر، بذكر المسالك ووعورتها، والطريق وأحوالها، وأماكن النزول والمبيت ومميزاتها، ومظان الحاجة من الماء والأزواد وخصوصيتها ... وإن كان السفر في البحر، يذكر المراسي التي يتم النزول بها، والظروف التي تهيأت للوصول إليها أو الإقلاع منها، والبحث عن المراكب التي هي مهيأة للسفر، وكيفية الركوب بها، والمعاملة التي يلقاها الراكب فيها.

- وصف حالة الراحلين أثناء السفر، إما في البحر بالحديث عن المراكب ونمط الحياة فيه وظروف السفر في البحر، والجماعة المسافرة على متنه وإمّا في البر بذكر الركب، وأميره، ونظامه، وحالته في السير والإقامة، وفي الحراسة والحماية وفي النزول والمبيت

وتأدية الصلوات، وغير ذلك مما يتميز به سير الركب المغربي، وإن كان بمفرده، أو يصبحه الركب المصري الذي يترافق معه دائما في الطريق من مصر إلى الحجاز ذهابا ومن الحجاز إلى مصر إيابا.

- وصف الحوادث الجارية أثناء الطريق، مما يمكن أن يكون عاديا في حياة جماعة من النّاس من حدوث مرض أو وفاة، أو البحث عن تائه، وغير ذلك ومما يمكن أن تحمله الظروف الطارئة من غزارة أمطار وجريان أنهار واعتراض قطاع الطريق، وسرقة متاع وغير ذلك من العوائق التي يصعب معها سيرُ الرحلة، ومتابعة قطع المراحل هذا إن كان السفر برًا، وإن كان في البحر أيضا بما تأتي به في الظروف الطارئة من فزع القرصان الذي تحمله صدفة اللقاء، فيهدد بالاستيلاء على المركب واستبعاد أصحابه ومن هول البحر وهيجان أمواجه وعواصف رياحه، مما يمكن أن يكون امتحانا عسيرا للراحلين في البحر ثم ما يعقب كل هذا من مضايقات تفتيش النّاس، والأمتعة ومصادرتها، والكطالبة بدفع المكوس والأعشار عليها في بعض المراسي البحرية كمرسى الإسكندرية وغيرها.

- وصف المجتمعات التي يتم المرور بها، والعمائر التي تؤدي إليها مراحل الرحلة ومسالك طرقها، حاضرة أو بادية. وخلالها يتم التعرف على القرى والثغور والحواضر، ووصف عمارتها وحضانتها ويتم التعرف أيضا على أهل هذه العمائر، وعاداتها ومواقفها وتعاملها مع ركب الحاج المار بها، وغير ذلك وقد تنتقد بعض عاداتها إن كانت لا تتناسب مع ما يتطلبه أن تكون عليه صورة المجتمع الإسلامي المتزن.

6. أنّها ترتكز على ما يمثل التواصل العلمي والاجتماعي بين المغرب وبقية المجتمعات التي يتم الاتصال بها، وبخاصة الأماكن التي تمتد بها إقامة الحجاج الراحلين فيكون فيها متسع من الوقت للتعرف على نشاط أهلها الاجتماعي والعلمي، ويكون لأهل هذه المناطق أيضا مجال أكثر لمعرفة من بركب الحج المارّ بها، من الشخصيات التي تستحق التعرف عليها

والاستفادة منها، إما في وضعها العلمي المتميّز، وإمّا في وضعها باعتبار ما تحمله من ملامح الولاية والصلاح، فيُتبرك بها ويُغتنم دعاؤها.[4]

ويتمثل عنصر التواصل العلمي الواجهة الأكثر إثارة في أعمال الرحلات الحجازية، فتشترك فيها جميعا دون استثناء، مع اعتبار نسبة التفاوت بينها.

وتتنوع واجهة التواصل العلمي بين المغرب، وبين ما يقع في مشرقه من الحواضر التي يمر بها الراحل إلى الحجاز في طريقه.

وأخيرا كانت عوامل الالتقاء هاته في صنف الرحلة الحجازية التي أنجزها المغاربة الراحلون مهما تباعدت فيها بينها، زمانا ومكانا، ومستوى ثقافيا وأدبيا كثيرة تجعل من نصوصها، رغم كثرتها وتباين أزمنتها وأصحابها أعمالا ضمن جنس أدبي واحد.

لا يوجد في تاريخ الإنسانية موقع جغرافي حجّ إليه ملايين البشر في كلّ جيل مثل الجزيرة العربية، ولا يوجد موطن استقطب خمس الإنسانية في طموحاتها الفكرية وتطلعاتها الروحية مثل الحجاز، الوطن الروحي الأوّل لكلّ مؤمن، فادعاء الاغتراب في مهبط الوحي ومنطلق الرسالة المحمدية هو شذوذ في عقيدة كلّ مؤمن يستشف في مثوى الرسول رمز الرحمة والمثالية وإشعاع الروح وإيماض الوجدان، فلذلك لم تعرف ولن تعرف مواقع السياحة الدولية مسارًا أكثر استرواحا وأشد استمراحًا من هذه الأرض الطاهرة التي ظلت كعبة الروّاد منذ انطلقت دعوة إبراهيم الخليل الأب الثاني للبشرية، تذكي الأفئدة والمشاعر خلال أربعة آلاف من السنين وشاء القدر أن يهيأ لهذه البقعة المقدسة أن تكون منارا للإنسانية جمعاء.

وقد تجلت هذه النفحات في آلاف الرحلات والفهارس التي دوّنها المسلمون طوال أزيد من ألف عام في مختلف بقاع الأرض ليسجلّوا انطباعاتهم وارتساماتهم في طريقهم الأحب إلى الحرمين.

كان الحج فرصة لزيارة أقطار إسلامية ولقاء علمائها ومختلف فعاليتها مصداقا لقوله عليه الصلاة والسلام: "سافروا تصحوا وتغنموا".(5)

إن الرحلة بين المغرب والمشرق كانت تستغرق شهورا عديدة يتم خلالها المسار في جو مفعم بالتلاقح الذي كان يرصص وحدة الفكر والصف ويشعر المسلم معه بوحدة الركب، بالرغم عن حدود مفتعلة اختلقها الاستعمار الغربي في القرن السادس عشر ميلادي وبث سمومه من خلال العثمانيين الذين حاولوا تطبيقها لأوّل مرة في المغرب الكبير، وأصبح آنذاك كل ما وراء المغرب الأقصى إلى مصر تحت لوائهم.

ولا يوجد في جغرافيا "المسالك والممالك" قطعة من أرض حظيت بعناية الرحالين المؤرخين مثل الطرق الكبرى والصغرى المؤدية إلى الحجاز التي صنفت فيها الكتب المختلفة المنازع والأساليب ومئات القصائد الحافلة بوصف المنازل والمراحل، علاوة على ما تطفح به من مشاعر الحنين التي جعلت من هذه الطرق لا متعبدات فقط، بل مجمعات استوثقت عبرها الصلات بين الشعوب الإسلامية ومبادلة الإجازات بين العلماء وتلاقح معطيات الفكر العربي والإسلامي، مما لم يعرف له نظير حتّى بعد عصر النهضة وما طرأ من سهولة وسرعة في المواصلات.

يقول الله تعالى:﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾(سورة الحج، الآية 27)، استنادا لهذه الآية العظيمة، تندفع قوافل الحجيج من بقاع العالم الإسلامي كافة، في أشهر معلومة من السنة الهجرية إلى أم القرى مكة المكرمة ليؤدوا الركن الخامس من أركان الدين الإسلامي.

وكانت أكثر قوافل الحج على العموم انتظاما وترتيبا التي تخرج من مصر والشام والعراق واليمن. إذ كان الحجاج في أكثر الأحيان يغدون إلى الأماكن المقدسة بالحجاز عن طريق مصر، خصوصا أولئك الذين كانوا يأتون إليها من الأندلس والمغرب وإفريقيا برًا وبحرًا.

تعكس الرّحلات الحجازيّة قدسية المكان والزمان باعتبار أنّها رحلة إلى مركز العالم بحسب التصورات الجغرافية والدينية القديمة. إذ الإقليم الرابع هو وسط العالم؛ وهو الإقليم الذي تقع في القدس ومكة. وتأسيسا على هذا كانت قبلة المسلمين الأولى القدس ثمّ صارت مكة وهذه التولية عن القبلة الأولى دافعت عنها آيات قرآنية وأحاديث نبوية، والفضاء المكي يضم أماكن مقدسة أخرى، ألزمت الشريعة زيارتها حتّى يكتمل الحج ويصِّح. (6)

كان العامل الديني من أبرز الأسباب التي دعت المغاربي إلى مغادرة مسقط رأسه للوقوف على أهم أمكنة انبعاث الدين الإسلامي مثل مكة والمدينة المنورة وبيت المقدس، ووصف ما تتضمنه من أماكن مقدّسة ينظر إليها كلّ المسلمين أينما كانوا بعين الإجلال والقداسة، كالمسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى.

إشعاع البيت الحرام، مهبط الرسالة والوحي، مثوى النبي "ص" والصحابة والتابعين، يمتد بنفسه إلى الفضاء الإسلامي عامة، وكل العناصر الطبيعية أو غير الطبيعية بمجرد ملامستها لهذا الفضاء، تصبح ذات وظيفة مغايرة للوظائف الشائعة، من الموت الذي يصبح استشهادًا أو ضياع المتاع على أنّه تطهير ورحمة من الله.

وبهذا يترك الرّحالة – الحاج، العنان لنفسه عند وصوله إلى البيت العتيق بالمسجد النبوي ومدافن الصحابة والتابعين، وشربه من بئر زمزم، فتنفجر الذّات بحالات من الشوق، وهي لحظات مميزة من الإعتراف بسحر التجربة وسيطرتها على الذات، وبهذا يصبح المكان حاملا لكل القيم الدّالة على الكلية والشمول التي تسند له كلّ الرواحل.

إنّ قيام الرّحالة بالمناسك إنّما الهدف منه تعليمي من خلال التكرار، إلا أنّ هذه الممارسات تتجدد بتجدد الممارسين، وبالتالي يتجدد البعد الرمزي الخاص بكل حاج.

لم يحظ مكان مقدس بالبحث والوصف كما حظيت بذلك المدينة المنورة في كتب الرحلات أو نصوص السفر على اختلاف أنماطها، وتفيض أحاسيس الرحّالة المسلم حين وصوله

وتنطلق دفعة واحدة دلالة على ما للمدينة المنورة من سطوة في وجدانه وما لهذا المكان الطاهر من قدسية، فتصبغ عباراته الإيمانية نصه الرحلي، وتتبادل حواسه النفحات الروحانية المتضوعة من وهج المدينة الديني.[7]

2- عجائب المكان التاريخي

لقد أسهب الرحّالة في الحديث عن الأمكنة وفصّلوها تفصيلا سواء أكان ذلك المكان محطة عبور أو منطقة أمن أو منطقة إقامة، وفي خضم حديثهم أخذوا من ذاكرة التاريخ كثيرا من الأمكنة التي شكل وجودها سردًا ممعن العمق للتاريخ الحضاري لتلك البلدان التي وجدت بها أو هي أمكنة عفا عليها الدهر، ذكرها الرحّالة في كتبهم بتفصيلاتها الدقيقة من باب الحفظ التاريخي لتلك الأمكنة، لتكون بذلك شاهدا من شواهد العصر.

لقد أورد العبدري في رحلته بعض الأماكن ذات الطابع التاريخي، كمدينة الإسكندرية التي يقول في وصفها: "بما ساس فيها من عجائب مبانيها ودبّر، ناهيك بمدينة كلّها عجب، قد تستر حُسنها حُسن غيرها وحجب" [8]، ويحدث عن أبوابها: "ومن جملة إبداعها وإغرائها ما رأيت من إتقان أبوابها" [9]، ويصف عمود السواري بها "ومن أغرب ما رأيت بها عمود من رخام بظاهرها يعرف بعمود السّواري وهو حجر واحد مستدير عال جدا على قدر الصّومعة المرتفعة" [10].

يتمظهر العجائبي عند العياشي، فهو متنوع في العمران، والعادات، والسلوك. ويكثر عند العياشي ورود العجيب والغريب المرتبط بالمعالم العمرانية والأمكنة والطبيعة، إذ يقول في حديثه عن الإسكندرية: "ومن عجائبها العمود المشهور بعمود السواري، وهو باق إلى اليوم ماثل في الهواء تحار الأفكار في صنعه ... ومن عجائبها المنارة المشهورة" [11]، يذكر لنا من مباني مصر العجيبة التي لا شبيهة لها في الدنيا، حمامها الكبير، فقد أثنى عليه الأطباء [12]، ويذم

العياشي بعض المدن المصرية المحاذية للنيل كمدينة الطينة يقول: "وهي قرينة خبيثة لا دنيا بها ولا دين".[13]

مرجعيات العياشي دينية وتاريخية، ومن ثم جاء متنوعا بين الاجتماعي والديني والغيبي والتاريخي، فهو رحالة يقدس الأمكنة بآثارها. ويذكر لنا: ومن غرائب أهل ليبيا – قرى نفزاوة – أنهم يحرثون ببقرة واحدة أو بجمل أو بإنسان فطال تعجب الرحّالة ومن معه [14]، ثمّ يفسر ذلك بهشاشة الأرض وعدم قسوتها، ويواصل حديثه عن أهل ليبيا، فيحكي الرحّالة على لسان أهل بلاد برقه حكاية زراعة شجر الزيتون وسبب ذلك أن الملك الذي بنى المدينة وقع الموت في عسكره فأراد معرفة السبب فشق على بطن أحد عسكره فوجد فيه دودة، فعلم أنّها سبب موته، فصبت

بصحة ذلك – ولكن لم يزل النّاس منذ أعصار يتبركون بها من العلماء والصلحاء، ويقتفي الآخر منهم الأول، فلأجل ذلك لما دخلنا إلى مزار السلطان المذكور صب القيم على الأثرين شيئا من ماء الورد، فغمسنا فيه أيدينا ومسحنا به على أوجهنا ورؤوسنا وأبداننا رجاء البركة بحسن النية وجميل الاعتقاد؛ لأنّ المنسوب إليه ذلك عظيم، ورائحة النسبة مع حسن النية كافٍ في ظهور الأثر وحصول المرام".[15]

فوصف الرحّالة فيه ازدواجية، حيث أنّه في مطلع المقطع يؤثث لوعي عالم مدير يأتي بالدليل تلو الآخر لنفي صدقية هذه الشائعات، ويظهر من خلال بعض المؤشرات الخطابية عدم اعتقاد الرحّالة فيها: يشاع عند النّاس، يقال إنّها، ويذكرون أنّها، لم نر من نص على أنّه ظفر بشيء من هذه الآثار، ما استفاض واشتهر، لا أصل له ...، كل هذه المشرات تكشف عن موقف الرحّالة من هذه العادات، ولا اعتقاد فيها؛ غير أنّه وهو يتابع سرد الأحداث في هذا المشهد يمهد لانخراطه في هذا الفعل، فكان حرف الاستدراك "لكن"، بمثابة الموجه الخطابي الذي ينقلنا من الوضعية الأولى إلى الوضعية الثانية، فما جاء استدراكا كان مخالفا لما قبله:

لم يزل النّاس منذ عصور يتبركون، لأجل ذلك، ورائحة النسبة مع حسن النية كافي في ظهور الأثر وحصول المرام.

إذن، فالبعد العاطفي الوجداني هو الذي يرتكز عليه الفعل، فالتبرك سلوك يرتبط بعادات لا يمكن أن نستدل عليها عقليا، وربما نجد من النصوص ما ينهى عنها شرعيا، لكن عندما يتعلق الأمر بشخصية مقدسة (النسب) طغى الجانب الوجداني على الجانب البرهاني، فانخرط الرّحالة في سلوك تقليدي عام قد يتعارض مع البراهين التي استحضرها لإنكاره.

ويتحدث العياشي عن أخبار مكة ذاكرًا غار حراء ويروي: "أخبرني شيخنا أبو مهدي عيسى أنّه خرج ذات مرة للتحنّث بهذا الغار، وكان يخرج إليه قبل ذلك بهذا القصد، وخرج معه في هذه المرة ثلاثة من أصحابه من الهنود، وكان اثنان منهما مقيمين معه، والثالث يتردد عليهما بما يحتاجان من ماء وطعام، قال: كان معي كتاب "بداية المجتهد" للحفيد ابن رشد أطالع فيه أحيانًا، فبينما هو ذات يوم في الغار وصاحباه في القبة والثالث تحت صخرة هناك، إذ عرض في السماء عارض غيم وبرق، ثم أرزم الرعد، وأتى بأمر هائل، قال: ما رأيت مثله قط، فلم أشك أنّه الموت، ولزمت مكاني، وطبت نفسا بشرف البقعة، وقلت: حبذا لقاء الله في مثل هذا المكان، وألزمت نفسي حضور القلب منتظرا حلول القضاء حتى انكشف ذلك.

وخرجت من الغار فإذا صاحباي اللذان في القبة ماتا، وأحدهما جالس على هيئته لم تتغير منه شعرة، والآخر ساقط قد سال الدم من بعض منافذه، فلم أر منظرًا أهول ولا أفزع من ذلك، فالتمست الثالث من أصحابي فوجدته تحت صخرة وقد سلمه الله فبعثته إلى مكة ليعلم أصحابنا"[16]. يقدم العياشي هذه الحكاية الغريبة للوصول إلى عدم التحنث في مثل هذه الأماكن ويقرّ الشيخ بأنّه لم يرجع إليه إلا زائرا.

ويذكر من المزارات في القدس بجبل طور، قبر سيدنا (موسى) ومن العجائب هناك أن حول القبر حجرًا، ويذكر ذلك الحائط الذي لا يزال يرى فيه صورة الفارس والرجل عليه سلاح أو غير ذلك ويشاهده كل من كان في ذلك المكان[17].

ومن العجائب يذكر انفتاح الأبواب رغم أنّها مغلقة لرجل أعرابي توسل فنادى نبي الله – موسى – من أجل إطعام بناته فأخذ الستر من قبر النبي وباعه في السوق [18].

إذن كرامات الأنبياء ومعجزاتهم تمتد بعد الممات من خلال سماعهم للغير، هذا ما أراد الرحّالة إيصاله وإثباته من خلال هذه الحكاية.

يقول الورثيلاني في وصفه لمصر: "نعم أمر مصر غريب وعجيب في كلّ الأصناف والأنواع والأجناس مهما رأيت جنسيا فيها إلا قلت أنّ هذا الجنس هو الذي في مصر فإذا رأيت العلماء قلت لا جاهل في مصر وإذا رأيت الأغنياء قلت لا فقير، وإذا رأيت الأشياخ وأصحاب الأوراد قلت هم أهلها، وكذا أهل الصنائع والحرف فما وردت قوما أو سوقا أو نزاهة إلا قلت أهل مصر موجودون فيه وهذا من عجائب مصر" [19]. فهنا يرصد الرحّالة النشاط الاجتماعي والثقافي والاقتصادي في مصر.

وللأمكنة التاريخية – آثار ومعالم – حضورا طاغيا في رحلة الورثيلاني وسرد ممعن للعمق التاريخي والحضاري لتلك البلدان التي وجدت بها "ومن عجائب الإسكندرية عمود السواري وليس في الدنيا مثله"[20]، ومن عجائب مباني أرض مصر "منارة الإسكندرية وهي مبنية بحجارة مهندمة مطلية بالرصاص على قناطر من زجاج، والقناطر على ظهر اسطوانات من نحاس وفيها نحو ثلاثمائة بيت بعضها فوق بعض تصعد الدابة بحملها إلى سائر البيوت من داخلها وللبيوت طاقات ينظر منها إلى البحر"[21]، ومن عجائب مصر أهراماتها "وهما أطول بناء وأعجبه ليس على الأرض بناء أطول منهما وإذا رأيتهما ظننت أنّهما جبلان موضوعان"

[22]. ويقول أيضا: ومن عجائب النيل "أنّ جميع أنهار الدنيا تجرى للمشرق أو المغرب ولا يجري للشمال نهر إلا النيل"[23].

أما عن كرامات الأولياء: يقول الباحث سعيد جبار: "يعمد الرحّالة إلى التوليف بين بعض وقائع الرحلة التي تتباعد زمنيا ليجعل بعضها استدلالا على بعض، أو يرمي إلى إبراز التماثل القائم بينها، على الرغم من اختلاف الأزمنة والفضاءات. فالانتقال من التوثيق الذي يرتبط بمسارات الرحلة وتحولاتها إلى التأويل والتفسير المبررين للوقائع والأحداث، هو في نظر التداوليين تحول إلى الواقع إلى التخييل" [24].

ويذكر الرحّالة كرامة أخبره بها الشيخ النفاتي التونسي، بأنّه حج في صغره مع أخيه أبي الحسن النفاتي، وكان أمير الركب، وقد مروا بوادي ينوت، وهو واد ينزل من جبال مسلاته قليل الماء، زمان القيظ، فألجأهم العطش بئر وادي ينوت، فنزلوا به ولم يجدوا به ماء، قال الشيخ.

3- العجائبي في رحلة العياشي:

يتمظهر العجائبي عند الرحّالة في تنوع العمران والعادات والسلوك، من خلال مرجعياته الدينية والتاريخية، ومن ثم جاء متنوعا بين الاجتماعي والديني والغيبي والتاريخي – وهذا ما تم ذكره سابقا –، فهو رحالة يقدس الأمكنة بآثارها وينقل كل ما تقع عليه عيناه في طريق رحلته وتعتبره مختلفا عنه ومن غرائب ما ينقل:

غرائب أهل ليبيا – قرى نفزاوة – أنهم يحرثون ببقرة واحدة أو بجمل أو إنسان.[25]

ويحكي الرحّالة على لسان أهل بلاد برقة – بليبيا – حكاية زراعة شجر الزيتون.[26]

ولا يزال في برقة يذكر أعاجيب ما رأى من بيت منحوت. [27]

ويتحدث العياشي عن أخبار مكة ذاكرا غار حراء وما حدث للشيخ أبي مهدي عيسى.[28]

يقدم العياشي هذه الحكاية الغريبة للوصول إلى عدم التحنث في مثل هذه الأماكن، ويقرّ الشيخ بأنّه لم يرجع إليه إلا زائرا.

ويذكر من المزارات في القدس بحبل طور، قبر سيدنا (موسى)؛ ومن العجائب هناك أن حول القبر حجرًا في الحائط الذي لا يزال يرى فيه صورًا منها ما يكون كالفارس أو الرجل أو غير ذلك، ويشاهده كل من كان في ذلك المكان. [29]

ومن عجائب هذا القبر التي فتحت أبوابه رغم أنّها مغلقة لرجل أعرابي توسل فنادى نبي الله –موسى – من أجل إطعام بناته فأخذ الستر وأغلقت الأبواب [30]. كرامات الأنبياء ومعجزاتهم، وسماعهم الغير حتى بعد الممات، هذا ما أراد الرحّالة إيصاله وإثباته من خلال هذه الحكاية.

كرامات الأولياء:

ويتحدث العياشي عن كرامات الأولياء لكل منّ كرامة بقبر سيدي كناو – بليبيا –[31]، يذكر الرحّالة كرامة أخبره بها الشيخ النفاتي التونسي [32]، ومن مكاشفات الأولياء عند دخولهم الإسكندرية زيارتهم للشيخة الصالحة الست نعيمة [33].

4- العجائبي عند الورثيلاني:

من البداية يصرح الورثيلاني بأنّ الرحلة ترتكز على الغريب والعجيب وهذا في قوله: "فإنّها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار مبينا فيها بعض الأحكام الغريبة والحكايات المستحسنة والغرائب العجيبة ..."[34]، يهيء الورثيلاني منذ البداية القارىء للاستمتاع برحلة تتشكل كل مفاصلها من العجيب والغريب، إضافة إلى ذلك أنّها تحتوي على محاسن الأخبار

في التاريخ والأخبار الغريبة والعجيبة، موشيا رحلته بكلام من التصوف ونقولات من الرحلة الناصرية ومقتبسا بدوره من رحلة العياشي.[35]

يصرّح بأن رحلته تلبية لنداء الحج، وهذا من خلال قوله: "تلبية للخليل عليه السلام حين قال له الله تعالى:﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلحَجِّ يَأتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ٢٧﴾(سورة الحج، الآية 27) [36]، فبدأ الورثيلاني بزيارة أولياء الله الصالحين الأحياء منهم والأموات قبل الاستعداد للسفر "دخلنا طولقة وزرنا سيدي عبد الرحمان الأخضري ... وزرت سيدي خالد ... والشيخ الغول أبا جملين في المسيلة، أفاض الله علينا من بركاتهم وأعاد علينا من أنوارهم" [37].

فالورثيلاني تربى على حب الأولياء، والتعلق بهم وزيارتهم، سواء كانوا أحياء أو أمواتا "فلم يترك وليا أو عالما إلا زاره من شرق الجزائر إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها، وكذلك في طريقة إلى المشرق فكان يتوقف عند كل عالم أو ولي سمع به ليزوره"[38]، "ومررنا على قبر الشيخ الولي الصالح والقطب الواضح رحمة وطننا وغيث بلدنا سيدي يحي العيدلي نفعنا الله به أمين"([39])، ويزور في رحلته في كل بلد الأولياء الأحياء والأموات، كالبدوي في مصر (ج2، ص657)، وأولياء إليه بليبيا (ج2، 714 – 732)، وتونس (ج2، ص756 – 757 – 770 – 771) وأولياء الله بقسنطينة (ج2، ص800) فلا يترك وليّا في مسار رحلته إلا زاره.

5-مسارات العجيب:

يظهر العجائبي بعدة أشكال في رحلة الورثيلاني، يقول الباحث شعيب حليفي: "لكن حضور العجائبي المرتبط بالدين يظل مهيمنا لاعتبارات شتى، منها هيمنة النصوص الرحلية الحجية والزيارية، وتأثير الوعي الديني والمعجزات، وارتباط الرحّالة بهذا القضاء واعتمالاته سواء كان الرحّالة فقيها أو متصوفا أو متأثرًا"[40].

1.5-الغيبي:

يدخل الغيبي في كرامات الأولياء، وهذا ما حكاه بموت الخيل لقوم تعدو على زرع سيدي الشيخ يحي العيدلي، فيعمد إلى تسجيل تدخل الغيب في حياو الآخرين لإثبات كراماتهم، حتّى أنّ حضور الغيبي يصبح شيئا متجاوزًا للكرامة، قريبا من المعجزة أو شبيها بها، ففي حديثه عن كرامات سيدي مزيان أنّه أخبر عنه لا يفعل شيئا حتى يستأذن النبي ρ، وكله كرامات مشهورة "وهي أنّه أتاه فقير في أيام الحج فقال له والله أن أحج في هذه الأيام، فلما ألح على الشيخ وذلك في زمان الخريف أعطى له عنقودًا فكمل أكله في مكة المشرفة، ثمّ لمّا كمل حجه وجد نفسه في داره"[41]. وهذا الكلام يحيلنا إلى البركة التي هي: "قوة خفية أشبه ما تكون بالسحر والسياق، بل المرجعية التي تستند إليها هذه الحكاية ليست إسلامية خالصة، إنّها مرجعية سحرية أسطورية، ... وإن كان في الإمكان اعتبارها كذلك رمزية، بل هي رمزية لأنّ غير المباشر فيها يحيل على المباشر، أي أن الأولياء أبواب إلى الله"[42].

ولإثبات كراماتهم التي تتواصل حتى بعد مماتهم وتظل رحمتهم كل من يحاورهم يذكر الورثيلاني حكاية الشيخ سيدي أبو علي المسيلي، أن من كراماته بعد موته "أن شخصا من تونس له صديق في بجاية مات يراه دائما في النوم يعذب، ولما مات أبو علي المسيلي رآه في نعيم وسرور وسأله عن السبب وكان مدفونا في جبل خليفة فقال له مات الشيخ غفر الله لمن كان بين أطراف المدينة من قبره إلى الجبل ضيافة له وهدية نفعنا الله به أمين"[43]، إنّها بركة الولي، تلك القوة الخفية التي يملكاه أولياء الله، وتجعلهم ذوي مكانة وخاصة لدى الله ولدى النّاس، فهذا الولي ببركة دفنه في هذا الجبل يغفر لكلّ من معه.

وعندما يتكلم الورثيلاني عن الركب الجزائري، يستحضر كراماته لأنّه أراد تطبيق الحدود على أهل عامر لمخالفتهم أحكام الشرع، فمن عاداه لم يرجع إلى بيته.[44]

2.5- الخوارق:

من أجل إضفاء طابع المبالغة على الرحلة يلجأ الرحّالة إلى تلوين رحلته بالخارق بمختلف أنواعه:

أولا: الخوارق في السلوك والطباع، خروج سيدي الهادي وفرسه وهو ذو الطول العظيم من باب لا يخرج منه الطفل، ويتجلى الخارق هنا من خلال القدرة عن فعل أشياء محيرة ومدهشة.

ومن الخوارق في السلوك، أنّ سيدي إبراهيم بن عمار لم يفوت صلاة الصبح مع شيخه سيدي يحي صيفا وشتاء، وقد "فعل أنّ الشيطان يصنع النّار له لعله يعوقه عن اللحوق به فشعر به ولم يلتفت له اصلا ولعنه واستعاذ من شره"[45]، وهذه السلوكات لا تصدر إلا من أولياء، وزهاد تدل على طبيعتهم وقدرتهم على الصبر والتحمل.

ثانيا: ومن خوارق الأولياء تكليم الجماد، كم خطب الجبل سيدي يحي العبدلي: "أنّه لما بنى مسجده المعلوم اختلفوا في القبلة، فلما اختلفوا فيها قالّ الشيخ سيدي يحي لجبل فوق قريته انخفض فانخفض فتبنيت لهم الكعبة ورآها كل من كان هناك" [46].

أن يكلم الإنسان الحيوان شيء طبيعي، ولكن أن تتكلم الحيوانات فهو الشيء العجاب والذي لم يحدث إلا لأنبياء الله. فيذكر الرحّالة ما حكاه بأنّه سمع من إبراهيم الحاج البجائي "أنّه سمع الحيتان في البحر تقول سبحان الله أحمد بن عبد العظيم ولي الله" [47]، ومن خوارق الشيخ إبراهيم الحاج البجائي أنّه شهد من طرف السيد أبا القاسم الحاج بأنّه رآه يجذب الشمس مع الملائكة.[48]

3.5- عجائبي الطبيعة:

حضور العجائبي في الطبيعة، وعلاقته بالإنسان خادم له من أجل إيقاظ حيرته، ومن غرائب الطبيعة، نجد تعجب الرحّالة في بلاد الحجاز من اختلاف الجو – المناخ – بين نهار حار، وليل بارد، "وقضينا عجبا من شدة الحر والبرد في المكانين المتقابلين" [49]، وأمّا ما

عدّه الرحالة من عجائب الطبيعة، وخوارقها عند حديثه عن المدينة، وأماكن الماء التي تشفي المرض فيذكر:

من مصادر الماء الموجودة بالمدينة، وأصبحت مقصودة بالزيارة والاستشفاء، قالت اسماء بنت ابي بكر كنا نغشل المرضى من بئر بضاعة ثلاثة أيام فيعافون[50]، ومن المواضع في المدينة تربية صعيب [51]، وبتراب مشهد حمزة [52] فقد ذكر أنّها تشفي من الحمى.

ويذكر من الأماكن التي مرّ بها الورثيلاني عند عودته في طريق الحج، مدينة المنستير بتونس، وأن بها بركة لشفاء المرضى من العلل، ويروي حكاية النّاس بأنّ سيدنا سليمان عليه السلام، أمر الجن بتسخين البركة وعند وفاته لم تعلم الجنّ بذلك فبقوا على ما هم عليه [53] وهنا يرتبط العجائبي في الطبيعة بالدين من خلال تسخين البركة وتداوي المرضى بها.

ومن عجائب الطبيعة ما يذكره الرحّالة من كتب التاريخ حول "إفاضة نهر النيل" [54]، وهذا دلالة كرامة صحابة رسول الله.

إلا أنّ خوارق الأفراد أولياء الله، هي التي تحضر بكثرة وخاصة قدرتهم على شفاء المرضى من العاهات المستعصية، فهذه بركات الولي الشيخ سيدي عيسى بن محمد، وقد مسح على عين الأعور فرجعت أحسن من قبل.[55]

4.5-التحول:

إنّ وجود التحول هو إحدى دعامات العجائبي، سواء هذا القول يطال الإنسان أو الطبيعة بقصد إحداث الإدهاش والحيرة، فالورثيلاني يذكر، حكاية الشيخ سيدي يحي مع الشيخ التواتي الذي طلب منه شيئا من الزيت، فأمر سيدي يحي الطلبة يأخذ المعز إلى الشيخ دون أن يكلموا أحدًا في طريقهم إلا أنهم خالفوا الوصية فتحولت المعز إلى جلودا من زيت فشق عليهم أمر

حمل الجلود مملوءة زيتا إلى بجاية [56]، هذه الحكاية تدل على قدرة الإنسان على تحويل الحيوان، ومسخه إلى جلود مملوءة من الزيت، تأكيدا لكرامة الشيخ.

5.5- الاختفاء:

من دعامات العجائبي حدوث الاختفاء وهو متجذر في الموروث الشعبي والديني، فيحدثنا الرحّالة عن كراماته المتواترة لسيدي يحي العيدلي عند رجوعة من سياحته بقي مختفيا عنّ النّاس نحو عشر سنين، وأمه على قيد الحياة، ولقد قام أهل قريتها بذبح ثور، ولم يجعلوا لها نصيبا منه، فأراد معاقبتهم فلم يجدوا من لحم الثور ما عدا الرأس والذيل، وعند خروجه عليهم أمسك الجلد من الذيل وطلب من الثور فقام بإذن الله وهنا ظهر أمر الشيخ.[57]

فاستحضار الاختفاء تأكيد لكرامة المختفي الملتبس في وجوده على الرؤية بقدرة مسخرة من الغيب، وهذا لاتصاله الروحي مع عالم الغيب دون وجود واسطة لهذا الاختفاء، والهدف من الخروج منه لتقديم مساعدة لأمّه التي ظلمت من طرف أهل قريتها، وليطبق عليهم العقاب نتيجة ذلك.

6- الأحلام في الرحلة الحجازية:

الحلم هو "تجربة سمعية أو بصرية على أنّها قد حدثت أثناء النوم" [58]، وميز العرب بين الحلم والرؤيا، إذ "الرؤيا من الله والحلم من الشيطان" [59]، بل إنّ الرؤيا هي آخر ما تبقى من النبوة، وهذا ما يدل على تجذر الحلم في حياة الرسل والأنبياء وقصصهم كقصة يوسف ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ٢١﴾ (سورة يوسف، الآية 21)، يقول الواحدي في معنى الآية أنّها تأويل الرؤيا [60]، إذ أنّ الحلم مرتبط بالمقدس والديني.

قدم لنا القرآن الكريم آيات عديدة تتحدث عن الرؤيا وتأويلها، ونجد كتب الحديث الشريف تقدم لنا أخبارا عن الرؤيا من خلال التفريق بين الحلم والرؤيا، وبيّن الفقهاء والمعبرين(*) شروط وكيفية النوم وشروط الحلم المكروه وطريقة مواجهته، وفصّل العلماء في آداب الحلم، حيث يشترط في الرائي الحفاظ على الفطرة والنوم على جنبه الأيمن وغيرها.(61)

أمّا ما تعلق بالزمان، فاصدق الرؤيا كما يرى ابن شاهين الرؤيا التي تكون في الربيع والصيف وأضعف ما تكون في الخريف والشتاء. أما زمن الرؤيا فالليل أقوى من النهار "وأصدق ساعات الرؤيا بالأسحار" (62)، وهناك من يرى بخلاف ذلك كما نجد عند النابلسي الذي يرى أن رؤية النهار أقوى، وإن اتفق فأصدق ساعات الرؤيا ألا وهي الأسحار.(63)

وقسم النبي الرؤيا إلى ثلاث يقول: "إنّ الرؤيا ثلاثة فرؤيا بشرى من الله تعالى، ورؤيا من الشيطان، ورؤيا يحدث به الإنسان نفسه" (64)، وقسم بعض المعبرين، الرؤيا الصالحة إلى قسمين قسم بُشرى وقسم تحذير. (65) ويجب تحري الصدق في رواية الحلم (66)، واختيار على من يقص حلمه أن يكون عالما أو ناصحا أو ذي رأي.(67)

أصلت الثقافة العربية لهذا العلم – علم تعبير الرؤيا – واعتبرته من العلوم الشرعية، وهذا خوفا من تداخله مع الدجل والشعوذة.(68)

تموقع الحلم في الثقافة العربية، وارتبط بالمقدس والديني، واعتبروا العلم المهتم به – علم التعبير– من العلوم الرفيعة المقام، وهو بدوره علم مقدس كقدسية الحلم. أمّا الحلم في الثقافات القديمة فقد ارتبط بالفلسفة واعتبر جزءًا منها، لا علاقة له بالجانب الديني، كالفلسفة اليونانية، إذ يرى أرسطو أنّ الأحلام هي مجرد بقايا ضمن الانطباعات الحسية. (69)

ويرى الفقيه والرحالة عبد الغني النابلسي أنّ الحلم يتشكل – حسب المعبرين من المسلمين – من "الرؤيا يراها الإنسان بالرّوح ويفهمها بالعقل، ومستقر الروح نقط دم في وسط القلب ومستقر القلب في رسوم الدماغ. والروح معلق بالنفس، فإذا نام الإنسان امتد روحه مثل السراج

أو الشمس، فيرى بنور الله وضيائه تعالى ما يريه ملك الرؤيا وذهابه ورجوعه غلى النفس مثل الشمس، إذ غطاها السحاب وانكشف عنها، فإذا عادت الحواس باستيقاظها إلى أفعالها ذكر الروح ما أراه ملك الرؤيا وخيل له. وقال بعضهم إنّ الحس الروحاني أشرف من الحس الجسماني، لأنّ الروحاني دال على ما هو كائن، والجسماني دال على ما هو موجود"[70].

إنّ فهم الحلم وتفصيلاته وأنواعه وشروطه وكيفية تشكيله وتجذره، وارتباطه بالنسق الثقافي للشعوب والأمم "الذين ارتبطت خوارقهم بالحلم والهذيان، وبقوة نفسانية، يمكن القول أنّها كانت تتماس رغم خصوصيتها من – بعيد أو قريب – مع ما كان يسلكه البوذيون، وجماعات هندية أخرى" [71]. كان للحلم تأثير كبير في الشعوب والحضارات القديمة إذ عُدّ الحلم كالنبوءة وأقوى من الواقع، وبهذا يدخل الجانب النفسي والاجتماعي في إنتاجه.

تُشكل الأحلام والرؤى جانيا هاما من نصوصنا السّردية نجدها في الحكايات الشعبية ورسالة الغفران، ورسالة التوابع والزوابع، ومنامات الوهراني، وليالي ألف ليلة وليلة، والحكايات العجائبية، وقصص الأنبياء، وكتب الأخبار، والرحلات. إنّ الرؤيا "تخترق بنية الثقافة العربية بدءًا من البنية الدلالية للغة لتتشرب في بنية النّصوص السردية، ومنها إلى نظرية المعرفة والنبوءات وأخيرا تصبح أداة إيديولوجية للخطابات تسعى بها لتحقيق مشروعيتها المعرفية بالخطابات الأخرى".[72]

عندما تجعل من الحلم وتعبيره، موضوعا فلأنّنا نعتبره نصا مثل اي نص أنتجه الإنسان إلا أنّه نص من طبيعة مختلفة لأنّه يُرى ليلا في الغالب في حال النوم، هذا الاختلاف يجعله أقرب إلى العجائبي الذي ولد الحيرة للرائي والمتلقي، ويجعله نا صعب التأويل والفهم. [73]

الخاتمة:

1-يعد أدب الرحلة من بين الأجناس الأدبية التي يمتزج فيها كل الإشكال الأدبية النثرية والشعرية في الدرس الأدبي

2-تعتبر رحلة الورتلاني من أهم الرحالات الأدبية التي كشفت عن حقائق عجائبية لبلاد المغرب العربي

3-الرحلة الحجازية كان من أهم الرحالة المسيطرة على شخصية الأديب والرحالة العربي إلا أن نفسه تغدو إلى زيارة ذلك المكان الذي يجتمع فيه ملاين البشر ووصف الشوق الذي ينتابه

4-تعد زيارة العياشي لبلاد المغرب العربي، بدءا من ولاية بجاية ومرورا بليبيا إلى القيروان أحد الرحلات العربية التي حوت داخلها معلومات عن هذا الجانب المنسي من رباع الوطن العربي

5-تنطلق العجائبية باعتبارها احد مشكلات البعد السردي للنص الرحلي محاولة إعطاء هذا النص أكثر تشويقا وجعله نصا أدبيا أكثر منه نصا جغرافيا.

6-حضور العجائبية في النص الرحلي يفرض على هذا النص أن يكون قريبا إلى الحلم منه إلى الحقيقة إلا أن الحلم قد يكون أسلوبا سرديا ملاصقا للنمط الحكواتي الموجود في أدب الرحلة

7-لم تقتصر العجائبية على أدب الرحلة فقط بل تعدتها إلى أجناس أخرى مثل المقامة والحكاية الشعبية والرسالة ونحو ذلك

8-تخرج العجائبية أحيانا في النص من كونها نمط سردي يساير النص، إلى الخيال أحيانا وذلك عندما يعمد الأديب أن يعطي لنصه الترحالي، بعض الصفات الخارقة، سواء لأشخاص الذين شاهدهم أو لاماكن التي وطأتها قدماه مما يجعل المتلقي يقع في قلق وحيرة، في فهم ثنايا النص.

تضارب المصادر:

أعلن أنه ليس لدي أي تضارب في المصالح

قـائمة المصادر والمراجع

[1]– ينظر: مصطفى سالم عبد الله حيلوص، أدب الرحلات عن العرب، نشأته وتطوره "ابن بطوطة نموذجا"، ط1، منشورات المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، سلسلة الدراسات التاريخية (95)، الجماهيرية العربية الليبية، 2009 ص217.

[2]– ينظر: المرجع نفسه، ص218.

[3]– ينظر: حسين نصّار، أدب الرحلة، ص19.

[4]– ينظر: عواطف محمد يوسف نوّاب، الرحلات المغربية والأندلسية، مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، دراسة تحليلية مقارنة، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1417هـ/1996م، ص36.

[5]–أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيّهقي، السنن الكبير، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التّركي، ج14، ط1، بتعاون مع مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، الدكتور عبد السند حسن يمامة، القاهرة – مصر، 1432هـ/2011م ص76.

[6]– ينظر: عواطف محمد يوسف نوّاب، الرحلات المغربية والأندلسية، مرجع سابق، ص38.

[7]– المرجع نفسه، ص41.

[8]– العبدري، رحلة العبدري، ص212.

[9]– المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[10]–المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[11]– العياشي، الرحلة العياشية، ج2، ص465.

[12]– المصدر نفسه، ج2، ص471.

[13]– المصدر نفسه، ج2، ص456.

[14]– العياشي، الرحلة العياشية، ج1، ص 80.

[15]– المصدر نفسه، ج1، ص170 – 171.

[16]– المصدر نفسه، ج2، ص153.

[17]– المصدر نفسه، ج2، ص410.

[18]– المصدر نفسه، ج2، ص411.

[19]– الورثلاني، الرحلة الورثيلانية، ج2، ص646.

[20]– المصدر نفسه، ج2، ص650.

[21]– المصدر نفسه، ج2، ص651.

[22]– المصدر نفسه، ج2، ص664.

[23]– المصدر نفسه، ج2، ص686.

[24]– سعيد جبار، من السردية إلى التخيّلية، بحث في بعض الأنساق الدلالية في السرد العربي، ص208.

[25]– العياشي، الرحلة العياشية، ج1، ص80.

[26]– المصدر نفسه، ج1، ص125.

[27]– المصدر نفسه، ج1، ص145.

[28]– المصدر نفسه، ج2، ص153.

[29]– المصدر نفسه، ج1، ص410.

[30]– المصدر نفسه، ج1، ص411.

[31]– المصدر نفسه، ج1، ص81.

[32]– المصدر نفسه، ج1، ص122 – 123.

[33]– العياشي، **الرحلة العياشية**، ج2، ص:464.

[34]– الورثيلاني، **الرحلة الورثيلانية**، ج1، ص612.

[35]– ينظر: مختار بن الطاهر فيلالي، رحلة الورثيلاني، عرض ودراسة، د ط، دار الشهاب، باتنة – الجزائر، 1998، ص62 – 63.

[36]– الورثيلاني، **الرحلة الورثيلانية**، ج1، ص13.

[37]–المصدر نفسه، ج1، ص16.

[38]– مختار بن الطاهر فيلالي، **رحلة الورثيلاني**، ص29.

[39]– الورثيلاني، **الرحلة الورثيلانية**، ج1، ص19.

[40]– شعيب حليفي، **الرحلة في الأدب العربي**، ص471.

[41]– المصدر نفسه، ج1، ص29.

[42]– الميلودي شغموم

(د ط)، منشورات المجلس البلدي بمدينة مكناس، (د ت)، ص44.

[43]– المصدر نفسه، ج2، ص622.

[44]– المصدر نفسه، ج1، ص24.

[45]– الورثيلاني، **الرحلة الورثيلانية**، ج1، ص61.

[46]–المصدر نفسه، ج1، ص20.

[47]– المصدر نفسه، ج1، ص23.

[48]– المصدر نفسه، ج1، ص23.

49- المصدر نفسه، ج2، ص514.

[50]- المصدر نفسه، ج2، ص572.

[51]- الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية، ج2، ص575.

[52]- المصدر نفسه، ج2، ص576.

[53]-المصدر نفسه، ج2، ص759.

[54]- المصدر نفسه، ج2، ص666.

[55]- المصدر نفسه، ج1، ص62.

[56]- المصدر نفسه، ج1، ص20 – 21.

[57]- المصدر نفسه، ج1، ص21.

[58]- فدوى مالطي دوجلاس، بناء النص التراثي (دراسات في الأدب والتراجم)، سلسلة دراسات أدبية، (د ط)، الهيئة المصرية العام للكتاب، 1985، ص151.

[59]- ابن سيرين، منتخب الكلام في تفسير الأحلام، إشراف مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر للنشر والتوزيع، 2010، ص385.

[60]- ابن شاهين، **كتاب الإشارات في علم العبارات**، مكتب البحوث والدّراسات، دار الفكر للنشر والتوزيع، 2010، ص603.

(*) اهتم بالحلم العلماء والفقهاء، فبحثوا وجمعوا روايات عنه، وحاولوا التقعيد له وضبط آلياته، فظهرت الكثير من الكتب التي تحاول تأويل الحلم من أشهرها: منتخب الكلام في تفسير الأحلام لابن سيرين (110هـ/729م)، والإشارات في علم العبارات لابن شاهين الظاهري (873هـ/1468م)، **وتعطير الأنام في تعبير المنام** لعبد الغني النابلسي (1143هـ/1731م).

[61]- ابن شاهين، كتاب الإشارات في علم العبارات، ص604.

[62]- النابلسي، تعطير الأيام في تفسير المنام، د ط، إشراف مكتب البحوث والدّراسات، دار الفكر للنشر والتوزيع، 2010، ص06.

[63]- ابن سيرين، تفسير الأحلام، ص391.

[64]- المرجع نفسه، ص387.

[65]- ابن شاهين، كتاب الإشارات في علم العبارات، ص605.

[66]- ابن شاهين، ص606، ابن سيرين، ص391، النابلسي، ص07.

[67]- ابن سيرين، تفسير الأحلام، ص385.

[68]- ابن شاهين، كتاب الإشارات في علم العبارات، ص603.

[69]- الكسندر بوريلي، أسرار النوم، ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة، سلسلة عالم المعرفة، رقم 163، يوليو 1992، ص89.

[70]- النابلسي، تعطير الأنام في تفسير المنام، ص06.

[71]- شعيب حليفي، الرّواية الفانتستيكية، ص16.

[72]- نصر حامد أبو زيد، الرؤيا في النص السردي العربي، مجلة فصول، مج13، ج03، خريف 1994، ص339.

[73]- ينظر: سعيد يقطين، السّرد العربي، مفاهيم وتجليات، ص232.